وظائف الزوايا الصوفية
مقاربة سوسيو أنثروبولوجية

الدكتور بن لباد الغالي

أهمّ الأدوار الّتي قامت بها الزوايا الطّرقية:

رغم انتشار التصوّف في جميع البلاد الإسلامية لم يكتمل وجوده إلاّ في القرن السادس هجري- الثاني عشر ميلادي أي في المرحلة الثالثة من حياة الحركة الّتي تشكّلت فيها الطّرقية فمن بين الأدوار الّتي أدّتها هذه المؤسّسة مع العلم أنّها لم تختلف في جميع أنحاء العالم الإسلامي وهي كالتالي:

لقد بدأت مشاركة الحركة الصّوفية قبل تحوّلها إلى مؤسّسات طرقية في الميدان الاجتماعي باستقطاب الجماعات المتمرّدة على السّلطة وقد تواصل هذا الدّور بعد ذلك حيث أصبح من كرامات كبار الأولياء تتويب العتّاه الخارجين عن القانون حتّى صار كثير منهم سالكي الطّريق كأبي بكر بن هوّار البطائحي، وأبي محمد الشبكي نتيجة لما توفّر للمؤسّسات الطرقية من أموال ناتجة عن الصّدقات والهدايا واتّساع الأوقات والحبوس الّتي كان يوقعها الأتباع عليها والتّي انتشرت في عهدين، الأيّوبي والمملوكي في الشرق والموحّدي في المغرب

والأندلس ممّا وفّر لها موارد اقتصادية هامّة مكّنتها من لعب دور كبير في مساعدة الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل، هذه الموارد الاقتصادية ساعدت على نشر ثقافة دينيّة هامّة من خلال ممارستها لمهمّة التعليم ونشر الثقافة حيث كادت أن تصبح المؤسّسة الثقافية الوحيدة لنشر العلم وقد تجلّى تأثيرها الفكري بخاصّة في بداية نشأتها بالتسرّب حتّى في علم الكلام نفسه الذي تشبّع بكثير من القيم والأفكار الصّوفية وهو العلم الذي وقف أقطابه ضدّ الحركة الصّوفية في بداية نشأتها، وبهذا أصبحت الزاوية تقوم بدور المسجد والمدرسة كما قامت ببعث الدّعاة لنشر الإسلام في المناطق الّتي لم تصلها الفتوحات الإسلاميّة كإفريقيا وجنوب الصّحراء وآسيا وقد سلّطنا الضّوء على هذه الطّرق الصّوفية لنوضّح في مناقشة تاريخيّة مصادرها الاقتصادية وطرق عيشها وسلوكات مشايختها مع مريديهم، هذا ما دفعنا لنبيّن تشكيلة السّلطة في الزوايا ولم نكن بالطّبع السبّاقين في دراستنا الاجتماعية للزاوية بل كثير من البحوث تبنّها باحثوا المغرب الأقصى حيث نجد محمد ظريف صاحب كتاب مؤسّسة الزاوية بالمغرب سبّاقا إلى دراسته هياكل الزاوية سوسيولوجيا سياسيّا مقرّبا المنهج الأنتروبولوجي لدراسته وقد عالج مشكلة السّلطة في المجتمع ونظرة الزاوية إلى السّلطة وتحوّلها إلى سلطة سياسية وكثير هم المغاربة الذين تفطّنوا لنواة الزاوية باعتبارها أوّل تركيبة

اجتماعية وكان الدّور على الباحثين الاجتماعيّين ليقدّموا دراسة وتفصيلا وافيا حول مكوّنات هذه النّواة المنتشرة في البلاد المغربية وبخاصّة منها المتمركزة في الشّمال وعلى مناطق السّهوب، ومن الباحثين من اعتبرها أساس الاستمرار ومنهم من اعتبرها أحد ثوابت الدّولة بتراثها الشّعبي الذي أنتجته والكمّ الدّيني الذي يتخرّج منها كلّ سنة أضف إلى هذا الجانب التنظيمي والسّلطوي الذي تلعبه الزاوية.

فهاهي «الباحثة بورقية» في كتابها الدولة والسّلطة والمجتمع طبعة دار الطليعة سنة **1994**م حيث تقول: «مكّننا نموذج قبائل زمّورة من إبعاد فكرة المخزن المهمّش من طرف المجتمع بحيث نشهد وجود نموذج «دولة» تمارس السّلطة عبر القنوات الاجتماعية لما تتمّته من قنوات فرعية كالقناة الدينيّة والرّمزيّة، وهناك تكمن خصوصيّة طبيعيّة مركزيّة المخزن (أو السّلطة) فعبر البيعة والزاوية يتسرّب ويترسّخ الرّمز، عبر الحركة يحضر الجهاز في المجال، وعبر القواعد يمارس المخزن الحكم «.

وما شهد انتباهنا في الفقرة السابقة هي: « فعبّر البيئة والزاوية يتسرّب ويترسّخ الرّمز «. أي التّأكيد السّلطوي والخضوع للسّلطة روحيا لا يمكن أن تمثّله أو ترسّيه إلاّ الزاوية فهي البرزخ الذي يجمع بين القرار السّلطوي والشّعبي، وكذلك بين ماهو فوقي وماهو تحتي وحتّى تتّضح لنا هذه الفكرة لا بدّ

أن ندرج المقال الذي كتبه المحرّر بن محمد القسطاني حول الزاوية: الزاوية ضرورة: « تعتبر الزاوية مؤسّسة تواصل بين الأفراد والجماعات بل بين المخزن من جهة والقبائل من جهة أخرى فهي المتنفّس الثّقافي والأمني والدّيني للأفراد والجماعات صعودا وهي تعريف للسياسة المخزنيّة نزولا تلعب الزاوية هذا الدّور نظرا لطبيعتها المزدوجة، ثقافة عالمة فقهيّة سنّيّة مرنة وثقافة شعبيّة رمزيّة طقسيّة صوفيّة عجائبيّة تؤثّر في العقل المستعدّ للانقياد وفي الوجدان إنّ مسألة وظيفة الزاوية يجب أن ينظر إليها من زاوية ثابتة وأخرى متحوّلة أمّا الثابت فهو في كون الوظيفة الأساسية كما لمسنا بالنّسبة لزاوية هي الوظيفة التربويّة بمعناها العام (معنى يترواح بين التعليم، تعليم القرآن وتعاليم الدّين حتّى النشاط الاقتصادي والإداري كذلك التّربية السياسية وصولا إلى الحربيّة مكن استنهاض الناس للجهاد) هذه هي الوظيفة الثابتة أمّا المتحوّلة فقد تعطي طابع الإمارة، فنموذج «الدلائيّين» إلاّ الذي لا يمكن أن نستنتجه بأيّ حال من الأحوال هو كون الزاوية إسلام البربر كما يرى «ميشو بليري» وطموح البربر إلى السّلطة إلى الطّموح السّياسي غير المشروط بأيّة مؤسّسة أو إثنية إنّه طموح الجميع (قبيلة، زاوية، أسرة، فرد) إنّ وظائف الزاوية في مجتمع غير بيروقراطي متعدّدة فهي خادمة الأمّة عبر المخزن والسّلطة يمكن أن تتعارض معها إمّا

نظرا لطموحها الخاص أو عندما تتعارض في تصوّرها مع مصالح الأمّة وخادمة نفسها عملا على تأييد تعاليمها ومصالحها ثمّ هي المرشد للعوام الذين يربحون من ورائها المصلحة مع الخصم إذ هي الحكم وتكوين الأخلاق بمباركتها... بذلك فالزاوية قبل أن تكون بركة وشفاعة ربح دنيوي واضح. والمتتبّع لمسار الزاوية وكيفية استقرارها عبر المجال يفهم قيمتها الاستراتيجيّة والإيكولوجية بل حتّى التّقنية في بعض الأحيان... وفوق ذلك كلّه فهي الرّابطة الخفيّة للوحدات المكوّنة للمجتمع الإسلامي والمحافظة على أسراره. بل وبالجهاد والمرابطة إن استدعى الأمر إلى ذلك، حتّى إذن ضرورة إسلامية وليست إسلاما بربريّا أو دولة بالقارّة كما تتصدّر السوسيولوجيّة الكنونيالية رغم عدم نفي الصفتين كلّية وإذ طغى فعل زاوية كبرى مركزيّة في مناطق معيّنة فالواحة العادية تعطي لنا صورة عادية وميكروسكوبية لزاوية فرعية وصغرى وصلحاء مبثوثين هنا وهناك صلحاء لكلّ قصر يؤكّدون الضّرورة السوسيولوجيّة هذا المقال الصّادر عن مجلّة فكر ونقد يحيلنا إلى دراسة سوسيولوجية قام بها باحثون مغاربة من خلال دراستهم الميدانية للعديد من الزاويا المغربية «كغريس» و«الدلائيّين» و «صلحاء تمصليحت» و «سيدي بو يعقوب»....

هذه النماذج اعتبرها محمد قسطاني محور دراسته السوسيولوجية وبهذا تمكّن بأن يعطينا تعريفا سوسيولوجيا للزاوية فيقول: «تعتبر الزاوية مؤسّسة تواصل بين الافراد والجماعات بل بين المخزن من جهة والقبائل من جهة أخرى».

وبهذا التعريف يمكن أن نصبغه على زاوية سيدي بن عمر ولكن لا بدّ أن نضع قوسين على عبارة الزاوية تعتبر متنفّس بين القبائل والمخزن وذها مردّه إلى زاوية سيدي بن عمر فقد كان هدفها الأسمى تربويّا تعليميّا لا سلطويّا وبطبيعة الحال لا يمكن أن تنفرد السّلطة عن التّربية وإن كان جزئيّا إلاّ أنّ أصل الطّريقة الطّيبية والّتي تبنّتها زاوية سيدي بن عمر فكانوا يعتمدون على تطبيق الأحكام الدّينيّة والشّرعيّة أضف إلى ذلك الجانب التّعليمي والتّدريسي وبثّ روح العلم والمعرفة ولا يمكن أن نغضّ الطّرف عن الهدف الأسمى الّتي كانت تسعى إليه هذه الزاوية هو غرساء معالم الطّريقة في نفوس «المريدين» و «المقدمين» وكذلك أهل المنطقة على العموم فتعامل الزاوية لم يكن يقتصر على أعضائها المؤلّفين لها من مريدين ومقدمين بل كان يتعدّى في كثير من الأحيان الحدود الوطنية إلى المغرب لأنّ الأصل المتّبع هو من الوزّانية وبالطّبع

تعدّى نفوذ هذه الزاوية التركيبة الإثنيّة الّتي كانت تمثّلها فقد طالت سلطتها إلى الأقاليم المجاورة كتلمسان والرّمشي المنطقة الّتي كان لها فرع ودور كذلك مغنية حيث أنشأ شيوخها زاوية فرعيّة بالقرب من حمّام بوغرارة والغزوات ومناطق أخرى بعيدة كبني سنوس ووهران وهذا رغم وجود زوايا كثيرة بهذه المناطق وخاصّة تلمسان بهذا يمكن أن نقول أنّ الزاوية بتعاملها مع الطّبقات الشّعبيّة تعتبر هي المتنفّس أو الوعاء الذي تلجأ إليه النّخبة لتعبّر عن نفسها أوّلا ثمّ لتتعلّم أو تحصّل العلم أو تحصّل المعرفة ويمكن أن ترسم هذه الفكرة في خطّ هرمي حيث أنّ القاعدة تتكوّن من عامّة النّاس وهي ضعيفة ككتلة متشكّلة وينعدم ثقلها أحيانا إن لم تدمج ضمن مؤسّسة لتعبّر عن ذاتها فالمؤسّسة عادة هي السّلطة الّتي يجمع كلّ تركيبة اجتماعية.

فالقاعدة المشكّلة تلجأ إلى الزاوية حيث تجد فيها المكان الهادئ للتّخمين والتّفكير ومناقشة أفكارها والتّعبير عن آرائها والاستزادة من العلم.

وترى في الزاوية هي المستقرّ الّتي يدعّمها بكلّ ثقافة جديدة وبهذا تزيد الرّابطة بين التّركيبة القاعديّة والفوقيّة متانة

فتتمكّن هذه الأخيرة من الاستحواذ عليها والتحكّم فيها ولكن منطق التّحكّم يخضع لقوانين يسنّها شيخ الزاوية ويطبّقها مقدمون بإمارة منه والقانون في الطّريقة الطّيبية أو في زاوية سيدي بن عمر لم يكن بالشّديد ووصف باللّيّن والمتسامح، فلم تشهد هذه الزاوية (سيدي بن عمر) قوانين زجريّة كالضّرب المبرح والطّرد دون عنوة كما كانت تنهجه طرق أخرى وما اشتهرت به زاوية سيدي بن عمر هو التّسامح واللّين في المعاملة وتصلب في تطبيق أحكام التّشريع ووعظ النّاس وإرساء الحبّ في قلوبهم والمهادنة والرّأفة عليهم معاملة الجميع معاملة عائليّة والمساواة بين العوامّ.

خلاصة القول كانت تتعامل مع الشّرائح البشريّة بلغة الحوار فهذا ما أدّى إلى اكتساب شهرة بالمنطقة فكثر الوافدون إليها ودعاتها بهذا المستوى تمكّنت من رفع الثّقافة الشعبيّة إلى ثقافة علميّة خاضعة لقوانين ومنهج علميّ مضبوط هذا بالطّبع ما كان يتوق إليه طلبتها، وبهذا يكون الخطّ الهرميّ قد اكتمل شرحه والواسطة هي الزاوية أو السّياسة السّلطويّة فالزاوية لم تكن المتنفّس الثّقافي والدّيني فحسب بل كانت تضمن لهم

الحماية على حدّ سواء الفكريّة حتّى لا تتعارض مع السّلطة ولأدبائهم حتّى لا تحمل إلى مراكز التّعذيب.

وإن عدنا إلى الحكم الفرنسي فإنّ زاوية سيدي بن عمر كانت تكتسب احتراما من هذه السّلطة فلم تؤذ هذه الأخيرة شيوخها ولا التّابعين لها كذلك القاطنين بجوارها وهذا الاحترام واعتقادهم الرّاسخ في أنّ (المرابو) الصّوفي ذو كرامة ويتمكّن من أنّ أذيّة من اعتدى عليه ولقدرة أعضاء الزاوية على معالجة المرضى من ورم عرق النّسى ولدغة الأفعى كلّ هذه العوامل تفاعلت لتجعل منها تكتسب احترام هؤلاء المعمّرين الّذين يقدّسون الرّوح على الرّغم من أنّهم أصحاب حضارة ومحتكّين بالعلوم الحديثة إلاّ أنّ ثقافة النّيّة وقدرته البسيطة في الاستشفاء هي الّتي كانت محور انبهار وتقديس ويمكن أن نقول إنّ الطّابع المادّي يعطي ثقة للإنسان ويزيده يقينا فروح الخفيّ الغامض لا يمكن تفسيره ويكون محلّ شكوك وتساؤلات كثيرة دون أن يجد لنا جواب يوحي به خياله وعقلانيّته المتشتّتة. صعودا هذه هي علاقة الشّعب بالزاوية والسّلطة بالنّسبة للحكم المتجلّي في الزاوية أو المتمثّل في سلطان الدّولة أمّا نزولا فالسّلطة الدّولة ترى في الزاوية هي الغربال الّذي تمرّر فيه الثّقافات الشّعبيّة

والشّرائح البشريّة ليكون لها منابر في السّلطة تعبّر عن انشغالات هذه الأمّة وبدون هذا الجهاز الأوّل أي الزاوية لا يمكن لأيّ فرد أن يتمرّد على السّلطة حتّى الزاوية لا يمكنها أن تتطلّع إلى السّلطة لأنّ وظيفتها تكمن في تكوين عيّنات وأطر للسّلطة السّياسيّة ليس طموح للوصول إلى سلطة حاكمة.

وفي هذا الصّدد حدّثنا محمد ظريف في كتابه مؤسّسة الزاوية بالمغرب حيث أنّ بعض الزوايا غيّرت مسارها أو هدفها كمؤسّسة ثقافيّة أو دينيّة أو بالأحرى كمؤسّسة شعبيّة تابعة للنّظام السّياسي محاولة ان تنفرد بسياستها كان مصيرها المحتوم ان تواجه سلطة المخزن فحكم عليها بالإعدام وبالتّالي اضمحلّت هذه الزوايا وبالطّبع فمؤسّسة الزاوية تنتج عيّنات تتلاءم مع مستوى النّفوذ السّلطوي سواء على صعيد الكفاءة العلميّة أو الدّينيّة الشّرعيّة هذه الأخيرة الّتي تعتبر هي أهمّ ركيزة في تكوين السّلطة الرّوحيّة وبخاصّة في البلاد الإسلاميّة أمّا النّظام الّذي تنتجه السّلطة فلا يجد صدى في الأوساط الاجتماعيّة إن لم تباركه الزاوية فهي المؤسّسة الوحيدة الّتي تتمكّن من التّرجمة والتّبسيط وبالتّالي تخرجه من طابعه التّقني النصّي إلى طابعه العلمي الحركي وهذا لحنكة شيوخها.

وبفضلهم تتواضع حشود البشر لتطبّق القرار وتخضع لقوانين نصّيّة الّتي تنصّها السّلطة، نخلص إلى أنّ الزاوية مباركتها الشّخصيّة سياسيّة والخطاب المنتج يلعب دورا تعريفيّا بالسّلطة وتمثّلها على الصّعيد الشّعبي.

أمّا الخطاب السّلطوي فتتعامل معه الزواية معاملة المترجم المحنّك فتمحوره حسب طريقة تعاملها وتنحي به إلى مبدإ أساسه المنفعة العامّة والخير للجميع فإن كانت الزاوية تحبّ الخير للجميع فلا محالة باستقطابها وتمثيلها للخطاب ستزكّيه وتعطيه تلك المصداقيّة الشّعبيّة فالعوامّ ينقادون للأوامرها انقيادا نعني بهذا الكلام أنّ ممثّلهم الشّعبي قد أبرز لهم معالم الخير في النّصّ السّياسي وهكذا تتمكّن الزاوية من محورة وفكّ رموز النّصّ لتتمكّن من بوتقته وصياغته حسب القعليات الشّعبيّة ولهذا السّبيل يكتسب الخطاب السّياسي تأييدا وتطبيقا أعمى وفي هذا المقام نعود لنقول أنّ مباركة الزاوية لشخصيات سياسيّة ما هو إلاّ دليل حاجة السّلطة لهذه المؤسّسة، فالرّؤساء قبل افتتاحهم حملاتهم الانتخابيّة يلجؤون إلى الزوايا لتباركهم وتمدّهم بالحصانة الشّعبيّة وليكسبوا المصداقيّة والتّزكية الشّعبيّة الاعتقاديّة نأخذ مثالا على ذلك الشّخصيات الّتي تترشّح

للانتخابات في الجزائر فإنّها تلجأ إلى الزوايا المنتشرة عبر القطر الوطني لتكسب تلك الحصانة الدينيّة والمصداقيّة الشّعبيّة.

تأكّد لنا من خلال هذه المناقشات أنّ الزاوية هي البرزخ الّذي دوما يجمع بين ما هو سلطوي سياسي وما هو شعبي أي أنّها تجمع بين عالمين متناقضين ومقرّبين تجمعها الثقافة النّفعيّة ومفترقين في مستويات الكفاءة والثّقافة العلميّة وسياسة التّسيير فوارق لا يمكن أن تجمعها إلاّ سلطة أو مؤسّسة ذات خبر وبالطّبع في هذه الحال كانت الزاوية هي الممثّل الوحيد أو هي المؤسّسة الّتي تذوّب هذه الفوارق